نظامنا الاجتماعي

(٥) كيف تستأصل الرذائل وتربّى الفضائل

« تقدّم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يريد الإسلام فبعد أن نطق بالشهادتين قال إني أقترف من الذنوب يا رسول الله ما لا أستطيع تركه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعاهدني على ترك الكذب قال نعم ثم عاهده على ذلك وانصرف وهو يقول في نفسه ما أهون ما طلب مني هذا النبي الكريم فلما أراد الرجل بعد ذلك أن يسرق قال في نفسه إن سرقت وسألني الرسول فماذا يكون جوابي إن أجبت بنعم فقد حق عليّ العقاب وإن أجبت بلا فقد كذبت وقد عاهدته على ترك الكذب إذن خير لي أن أبتعد عن السرقة فابتعد عنها وصار يبعد ذلك يتذكر عهده كلما حدثته نفسه بارتكاب إثم فيبتعد عنهُ حتى صلح حاله وصار من خيار الناس العاملين على نصرة الدين والتمسك به وبفضائله » هذا خير سبيل في استئصال الرذائل وتربية الفضائل في الفرد والجماعة إن لم يكن هو السبيل الوحيد لمن يريد الإصلاح حقًّا حتى يصل بالنفوس إلى الغاية التي خلقت لها ولا غرو فهذه سبيل رسول الله خير الهداة والمرشدين وإمام الحكماء والمربّين. وربّما تعب علماء الأخلاق وأساتذة التربية في اختيار أقرب طريق لإحلال الفضائل محل الرذائل وتحقيق تلك الغاية السامية بعد أن يفرغوا ما في جعبتهم من الآراء النظريّة في معامل التجربة من نفوس الأحداث الذين هم أقرب إلى الفضائل منهم الى الرّذائل فكيف يصلحون الشباب والشيب ويجتثون منهم أصول الرذائل وإن كان همّ المربين محصوراً في النشء الحديثين وما أكثر تجاربهم فيهم وما أقل نجاحها وتلك حقيقة لا ريب فيها وإن آلمتنا ! ولسنا من الذين يغالطون أنفسهم في الحقائق لظاهرة من الظواهر الكاذبة

إن المغالط في الحقيقة نفسه باغ على النفس الضعيفة عاد

فعلى كل إنسان أن يعاهد نفسه على ترك الكذب قبل أن يعاهد غيره من أولى الأمر على ترك هذه الرذيلة فقد لا يهتم اولو الأمر بهذه المعاهدة لأنهم لم يعهدوها في الامم الخالية ولا المحدثة وإنه يجدر بالأب أن يعاهد أبناءه على ترك الكذب وبالمعلم أن يعاهد تلاميذه على ترك الكذب وبكل رئيس أن يعاهد مرءوسيه على ترك الكذب ولا بد من الرّقابة العامة لتنفيذ تلك المعاهدة الميسورة وتحقيقها . ولأن يضرّك الصدق خير من أن ينفعك الكذب

قال الإمام علي كرّم الله وجهه عوّدوا أبناءكم الصدق يعتادوا كلّ فضيلة لذلك نرى ضرورة الكتابة في الصدق لنوقف القراء على أبحاثه فتتجلى للناس سبيله فيعمل له العاملون وخير القول ما صدّقه العمل فنقول :

الصدق مطابقة الكلام للواقع والاعتقاد فإن أخبر انسان بما يطابق الواقع فقط دون اعتقاده فكذب كقول اليهودي (محمد رسول الله) وإن أخبر انسان بما يطابق اعتقاده دون الواقع فكذب أيضاً مثل قول اليهودي (إن يوذا إله) ولا تكون الفضيلة فضيلة إلا إذا كانت صادرة عن ضمير واعتقاد كما لا يخفى لذلك نعد النفاق من الكذب لان المنافق يظهر خلاف ما يبطن ويعتقد وهذا كذب عملي كما نعدّ الملق من الكذب لأن المملاق أو المتملق الذي يمدح إنساناً بما لا يعتقده فيه ليسرّه بغية الحصول منه على منفعة كذاب في قوله كذاب في عمله والواجب علينا ان نتخذ الصراحة ديدننا فنفتح قلوبنا لمن يخاطبون ونخاطبهم وأن نصدق في التعبير وفق الواقع والاعتقاد فالنفاق والملق نوعان من الكذب قد وضع لها اسمان خصيصان بهما والصراحة نوع من الصدق ولكن وضع لها اسم خصيص بها

والصدق اهم القواعد التي تبنى عليها المجتمعات ولولاه ما بقي مجتمع ذلك لانه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ليتعاونوا وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم ليعيشوا ومعنى الافهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق الى غيره — ألا ترى ان ذلك هو الصدق ألم تر الى التاجر إن لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع أو الشراء وكذلك الذي يشترى منه إن لم يصدق التجار فيما يقولونه من الأثمان وما يروى اليه من الاخبار في هذا الصدد لا يقدم على الشراء ولذلك قيل في المثل رأس مال التاجر صدقه ومثل ذلك يقال في الزراعة والصناعة بل قد يتجاوز ذلك الى الحاكم والمحكوم فإن الحاكم إن لم يغلب عنده صدق الشهود والصكوك والوثائق لا يستطيع رد الحقوق إلى أربابها ولا إنصاف المظلوم من الظالم ولا إثابة المحسن ومعاقبة المسيء. كذلك المدرس ان اعتاد الكذب أضر بتلاميذه لأنه يقذف في عقولهم معلومات كثيرة الأغلاط فإذا ظهر امره لديهم كذبوه في كل ما يقوله لهم وإن كان صدقا والكذب في العلم كالكذب في المعاملة إن لم يكن شراً منه

وقد يصل ضرر الكذب الى الديانات والشرائع فانا اذا لم نصدق ما جاء فيهما من عظيم الآداب وصادق التشريع لكنا همل لا ندين بدين . والكذب في كل أولئك ونحوها يخل بالمقصود من المجتمع الانساني فيتصدع به بناء الوحدة ويختل

لنظام العدالة فتصبح الامم فراداً لا يراعي كل فرد إلاَّ فائدة نفسه دون غيره

فظهر من هذا كله أن الصدق عليه مدار نظامنا الاجتماعي وأن الكذب معول هدمه كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذي من شأنه ان يكون إعرابا عن الحقيقة . ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تقتضي كذبات لتغطيتها وهيهات ذلك لأن الكذاب يخلق في الدنيا بكذبه عالم يوجد . يخلق خيالا لا يتفق والواقع وقد يضطره هذا الخيال أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال كما يفعل بعض الصحفيين في زمننا هذا . أما أسباب الكذب فكثيرة اهمها ما يأتي

(١) ولوع المرء بمدح نفسه بما يتخيله جالباً للفائدة أو مدح من سيمت إليه بصداقة أو قرابة أو يرجو منه نفعا جزاء ذلك المدح كالشاعر المدّاح والصحفي المأجور وإذا استمر الإنسان على هذا المدح لتلك المقاصد الفيتة صار له الكذب ملكة راسخة فتراه لا يخلو كلامه من الكذب ولو حاول ان يقول صدقا فإن الخلق ابن العادة كما تقدم ذلك في مقالنا السابق وعلى هذا القياس من اعتاد الصدق فإنه يؤثره على الكذب ولو أضرّ به

(٢) التخلّص من المسئولية والعقاب كما نشاهد ذلك كثيرا في المحاكم والمصالح والصناعات وإن كانت الحقائق تظهر بعد ذلك كالشمس في رائعة النهار إن كان المحقق قديراً والرئيس ذكيا خبيرا بالأمور بصيرا

(٣) الخداع كما في حالة الحروب فقد ترى امة محاربة لأخرى تكذب عليها للايقاع بها كأن تقول إنها ستهاجمها من جهة لا تريدها أو تأخذ في الهجوم من ناحية وفي عزمها الهجوم من ناحية أخرى وهذا نوع من الكذب ممدوح لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الحرب خدعة) وشواهده تشاهد في هذه الأيام الحاضرة كما شوهدت في الأيام الغابرة

(٤) تهوين الأمر على المريض مع القيام بعلاجه لئلا تزداد آلامه أو تترك الحسرة في نفسه آثاراً سيئة تحدث امراضا أخرى. وقد أباح علماء الاخلاق الكذب في هذا الموضع رحمة بالمريض وذويه ولكن يجب على المريض ألا يكذب على الطبيب في مرضه ولا في بيان اعراضه كذلك يجب على الطبيب أن يصدق مع المريض في العمل اكثر من القول إن رأى ان قول الصدق ضار بالمريض كما تقدم

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه وأمته يكذب على نفسه وكثيرا ما يكون ذلك كمن يحاول ان يخلق لنفسه الاعذار عن كسله او بخله او صموته أو

جبنه خداعا لنفسه وصرفا لها عن الحق . وقد يفرق الإنسان في هذه الحال حتى تصير عادة له وحتى لا يستطيع له ان يميز الحق من الباطل والصدق من الكذب ويكون مثله مثل من يطيل الإقامة في الظلام فإذا صادفه النور فجأة لم يستطع تمييز ما فيه. وإن اولى الناس بالعناية الخلقية والتربية الحقيقية هم الأحداث لأنهم مهيئون الى الخير أكثر من الشباب والشيب فعلينا ان نرى فيهم أصل الفضائل أعني الصدق بأن نعاهدهم نحن الآباء والمدرسين على ترك الكذب وأن نكون نحن نماذج حسنة في الصدق في اقوالنا وفي الوفاء بوعودنا ووعيدنا بلا شطط أو تفريط وأن نبعث فيهم الاحساس بحقائق الأشياء وأن نباعد بينهم وبين الأقاصيص الباطلة والخرافات التي سمعناها من آبائنا أو أصحابنا أو اطلعنا عليها في المؤلفات ككتاب الف ليلة وليلة وقصص الأبطال الذين سلفوا كعنترة العبسي وإلى زيد الهلالي ومهلهل التغلبي فإنها محشوة بالاساطير وإن كان عنترة من أشجع أهل زمانه وأبو زيد من أجرأ أهل عصره وأوانه ومهلهل صاحب الغارات الشعواء والكتائب الجأواء ألا أنهم لم يكونوا بالدرجة التي وصفهم بها أولئك القصاصون ولم يخوضوا بحر تلك الدماء التي أراقوها ولم يقولوا كل تلك الأشعار التي أنشدوها وإن كان لهذه القصص فوائد للكبار من حيث تقوية الخيال والاستمتاع بلذيذ السمر مع اعتقادهم بأنها أحاديث خرافة ولكن لا فائدة منها للصغار إلا إضاعة الأوقات وتعويدهم الكذب وتصديقهم بكل ما يقال ولو كان غاية في المبالغة والكذب قياساً على ما قرءوه في تلك المؤلفات الخرافية وقد دلّ الاستقراء على فساد عقلية أولئك الناس الذين يستمعون لهذه القصص وعلة فسادها اعتقادهم أنها حق لا ريب فيه وصدق لا شك فيه والواقع أنها كذب لا شك فيه

وإذا كانت القوانين تعتبر مزيفي النقود جناة مجرمين لأنهم يغشون المتعاملين في منافعهم المادية فما قولك فيمن يفسد العقول والقلوب ويزيّف النفوس ويسمّمها بالكتابات الكاذبة والأحاديث الملفقة وليس أوقع في نفس المطالع او السامع من الكلمات القليلة الصادقة التي تصدر حقيقة من القلب إلى القلب . وعلى الجملة فالصدق أصل الفضائل والكذب أصل الرذائل. سئل وسطاليس الحكيم ما ضرر الكذب فقال (الا يثق الناس بقولك حين تصدق) . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وانت له به كاذب . وفي هذا بلاغ

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوي